الفصل الأول

الربّانيّة

إن الخصيصة الأولى من الخصائص العامة للإسلام هي: الربانية.

والربانية ـ كما يقول علماء العربية ـ مصدر صناعي منسوب إلى «الرب»، زيدت فيه الألف والنون، على غير قياس، ومعناه: الانتساب إلى الرب، أي: الله، سبحانه وتعالى، ويطلق على الإنسان أنه «رباني» إذا كان وثيق الصلة بالله، عالماً بدينه وكتابه، معلماً له. وفي القرآن الكريم: (ولكن كونوا، ربانيين بما كُنتم تُعلِّمون الكتاب وبما كُنتم تدرُسُون)[1]

والمراد من الربانية هنا أمران:

١ ـ ربانية الغاية والوجهة. ٢ ـ ربانية المصدر والمنهج.

١ ـ ربانية الغاية والوجهة:

فأما ربانية الغاية والوجهة، فنعني بها: أن الإسلام يجعل غايته الأخيرة وهدفه البعيد، هو حسن الصلة بالله تبارك وتعالى، والحصول على مرضاته، فهذه هي غاية الإسلام، وبالتالي هي غاية الإنسان، ووجهة الإنسان، ومنتهى أمله، وسعيه، وكدحه في الحياة: (يا أيُّها الإنسانُ إنك كادحٌ إلى ربِّكَ كدحاً فَمُلاقيه)[2]، (وأنَّ إلى ربك المنتهى)[3].

ولا جدال في أن للإسلام غايات وأهدافاً أخرى إنسانية واجتماعية، ولكن عند التأمل، نجد هذه الأهداف في الحقيقة خادمة للهدف الأكبر، وهو

(١) آل عمران: ٧٩.
(٢) الانشقاق: ٦
(٣) النجم: ٤٢.

مرضاة الله تعالى، وحسن مثوبته. فهذا هو هدف الأهداف، أو غاية الغايات.

في الإسلام تشريع ومعاملات، ولكن المقصود منها هو تنظيم حياة الناس حتى يستريحوا، ويبرأوا من الصراع على المتاع الأدنى، ويفرغوا لمعرفة الله تعالى، وعبادته، والسعي في مراضيه.

وفي الإسلام جهاد وقتال للأعداء، ولكن الغاية هي: (حتى لا تكونَ فتنةٌ ويكون الدِّينُ كله لله)[1]

وفي الإسلام حث على المشي في مناكب الأرض، والأكل من طيباتها، ولكن الغاية هي القيام بشكر نعمة الله وأداء حقه (كلوا مِن رِزق رَبكُم واشكُروا لهُ بلدة طيبة وربٌ غفُور)[2]

وكل ما في الإسلام من تشريع وتوجيه وإرشاد، إنما يقصد إلى إعداد الإنسان ليكون عبداً خالصاً لله، لا لأحد سواه. ولهذا كان روح الإسلام وجوهره هو التوحيد.

ومعنى التوحيد: أن يعلم الإنسان أنه لا إله إلا الله، وأن يفرده تعالى بالعبادة والاستعانة، فلا يشرك به أحداً، ولا يشرك معه شيئاً. وهذا معنى (إياك نَعبد وإياكَ نستعين)[3] التي يرددها المسلم في صلواته كل يوم ما لا يقل عن سبع عشرة مرة، كلما قرأ فاتحة الكتاب في ركعة من ركعات الصلاة.

ولقد خاطب الله تعالى رسوله محمدا - ﷺ - بهذه الحقيقة، وأمره أن يعلنها ويبلغها للناس، فقال: (قل إنني هداني ربي إلى صِراط مُستقيم ديناً قِيَماً ملة إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين. قل إنَّ صلاتي ونُسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين. قُل

---

(١) الأنفال: ٣٩.

(٢) سبأ: ١٥.

(٣) الفاتحة: ٥.

أغير اللهِ أبغي رباً وهو ربُّ كل شيء)[1]

إن الإنسان لم يخلق لمجرد أن يأكل ويشرب، ويلهو ويلعب، ثم بعد ذلك يموت أو ينفق كما تنفق الدابة، كالذين حكى القرآن عنهم أنهم: (يَتمتَّعون ويأكُلون كما تأكُل الأنعام)[2] إنما خلق الإنسان لغاية أسمى.

يقولون: إن الأحمق يعيش ليأكل، والعاقل يأكل ليعيش، ولكن يبقى هنا سؤال يتحتم الإجابة عنه، هو: ولماذا يعيش العاقل؟ إن العيش ليس غاية في نفسه، تُقصد لذاتها، بل لا بد من هدف يعيش له الإنسان، فما هو؟

أما الماديون، فلا يجدون لهذا السؤال في فلسفتهم جواباً يشفي، وأما المؤمنون فيقولون: إن الإنسان يعيش ليعرف خالقه سبحانه، ويعبده، ويقوم بخلافته في الأرض.

فإذا كان الأحمق يعيش ليأكل، والعاقل يأكل ليعيش، فإن المؤمن يعيش ليعبد الله وحده.

يقرر القرآن هذه الحقيقة بوضوح وجلاء، حين يذكر الغاية من خلق الجن والإنس فيقول تعالى: (وما خلقتُ الجنَّ والإنس إلا ليعبُدون. ما أُريد مِنهُم مِن رزق وما أُريدُ أن يُطعِمُون. إنَّ اللهَ هو الرزاقُ ذو القوةِ المتين)[3].

بل يبين القرآن أن خلق العالم كله علويه وسفليه، سماواته وأرضه، لم تكن الغاية منه إلا أن يعرف الناس ربهم القادر على كل شيْء، العليم بكل شيء. وهذه المعرفة هي باب كل هدى، ومفتاح كل خير، يقول سبحانه: (اللهُ الذي خلَق سبعَ سماواتٍ ومن الأرض مِثلَهُن يتَنزَّلُ الأمرُ بَينهُن لتعلموا أنَّ اللهَ على كل شيءٍ قدير وأنَّ الله قد أحاط بكل شيءٍ علماً)[4].

الإنسان إذن لم يُخلق لنفسه، فكل شيء في هذا الكون قد خلق ليؤدي خدمة لغيره. وهو كذلك لم يخلق لخدمة شيء آخر من مخلوقات هذا الكون،

---

(١) الأنعام: ١٦١-١٦٤.
(٢) محمد: ١٢.
(٣) الذاريات: ٥٦ : ٥٨.
(٤) الطلاق: ١٢.

فكل ما في الكون سُخر لخدمته، كما قال الله تعالى: (ألم تَرَوْا أنَّ الله سخَّر لكُم ما في السّماواتِ وما في الأرضِ وأسْبَغَ عليكُم نِعمهُ ظاهرة وباطنة)[1]

كل ما في الكون قد خلق للإنسان. أما الإنسان نفسه فقد خلق لله جل جلاله.. لمعرفته وعبادته، وأداء أمانته في الأرض. وكفى بهذا شرفاً وفخراً، فهو سيد في الكون، عبدلخالقه وحده.

من ثمرات هذه الربانية في النفس والحياة:

ومما لا ريب فيه أن لهذه الربانية ـ ربانية الغاية والوجه ـ فوائد وأثاراً جمة في النفس والحياة، يجني الإنسان ثمارها في هذه الدنيا، فضلاً عن ثمراتها في الآخرة. وهي ثمار في غاية الأهمية.

فمن آثار هذه الربانية وثمراتها:

أولاً: معرفة غاية الوجود الإنساني:

أن يعرف الإنسان لوجوده غاية، ويعرف لمسيرته وجهة. ويعرف لحياته رسالة، وبهذا يحس أن لحياته قيمة ومعنى، ولعيشه طعماً ومذاقاً، وأنه ليس ذرة تافهة تائهة في الفضاء، ولا مخلوقاً سائباً يخبط خبط عشواء في ليلة ظلماء، كالذين جحدوا الله أو شكوا فيه، فلم يعرفوا: لماذا وجدوا؟ ولماذا يعيشون؟ ولماذا يموتون؟

كلا، إنه لا يعيش في عماية، ولا يمشي إلى غير غاية، بل يسير على هدى من ربه، وبينة من أمره، واستبانة لمصيره، بعد أن عرف الله وأقر له بالوحدانية.

إنه لا يقول ما قاله الشاعر الحائر المرتاب:

لَبِستُ ثوبَ العيشِ لم أُستشر　　　وحرت فيه بين شتى الفكر؟
وسوف أنضو الثوب عني، ولم　　　أدر: لماذا جئت؟ أين المفر؟!

---

(١) لقمان: ٢٠

أو ما قاله الآخر:

جئتُ لا أعلمُ من أين ولكني أتيـــــت!

كلا .. فقد اتضحت وجهته الربانية، وعرف من أين جاء، ولم جاء، وإلى من فراره، وأين قراره. إن حسبه أن يقرأ من كتاب ربه ما رد به إبراهيم خليل الرحمٰن على عبدة الأوثان فقال: (فإنَّهم عدوٌّ لي إلا ربَّ العالمين. الذي خلَقني فهُو يَهدين. والذي هو يُطعِمُني ويَسقين. وإذا مَرِضتُ فهو يَشفين. والذي يُميتِني ثم يُحيين والذي أطمعُ أن يغفِرَ لي خطيئتي يومَ الدين)[1].

ثانياً: الاهتداء إلى الفطرة:

ومن ثمرات هذه الربانية وفوائدها، أن يهتدي الانسان إلى فطرته التي فطره الله عليها. والتي تطلب الإيمان بالله تعالى، ولا يعوضها شيء غيره، يقول تعالى: (فأَقم وجهكَ للدينِ حنيفاً، فِطرة اللهِ التي فَطر الناسَ عليها، لا تبديل لخلق الله)[2].

واهتداء الإنسان إلى فطرته ليس كسباً رخيصاً. بل هو كسب كبير، وغنى عظيم، فيه يعيش المرء في سلام ووئام مع نفسه، ومع فطرة الوجود الكبير من حوله، فالكون كله رباني الوجهة، يسبح بحمد الله: (وإن من شيء إلا يُسبِّحُ بحمده)[3].

والحقيقة أن في فطرة الإنسان فراغاً لا يملؤه علم، ولا ثقافة ولا فلسفة، إنما يملؤه الإيمان بالله جل وعلا.

وستظل الفطرة الإنسانية تحس بالتوتر، والجوع والظمأ، حتى تجد الله، وتؤمن به، وتتوجه إليه.

هناك تستريح من تعب، وترتوي من ظمأ، وتأمن من خوف، هناك تحس بالهداية بعد الحيرة، والاستقرار بعد التخبط، والاطمئنان بعد القلق، ووجدان

(١) الشعراء: ٧٧-٨٢.
(٢) الروم: ٣٠.
(٣) الإسراء: ٤٤.

المنزل والأهل بعد طول الغربة، والضرب في أرض التيه.

فَألقَتْ عصاها واستقر بها النوى كما قَر عيناً بالإياب المسافرُ

فإذا لم يجد الإنسان ربه - وهو أقرب إليه من حبل الوريد - فما أشقى حياته وما أتعس حظه، وما أخيب سعيه!

إنه لن يجد السعادة، ولن يجد السكينة، ولن يجد الحقيقة، لن يجد نفسه ذاتها: (كالذين نَسُوا اللهَ فأنساهُم أنْفُسَهُم)[1].

فتصور إنساناً يعيش دون أن يجد نفسه، وهو في رأي نفسه، وفي نظر الناس بشر عاقل، سميع بصير، بل لعله جامعي مثقف، ولعله - فوق ذلك -، «دكتور» كبير في العلوم أو الآداب!

وكيف يجد نفسه من لم يعرفها؟ وكيف يعرفها من حُجبَ عنها بالغرور والكبر؟، أو شُغِل عنها باتباع الشهوات، والإخلاد إلى الأرض، والغرق في لذائذ الحس، ومطالب الجسد والطين؟

إن الإنسان خَلقٌ عجيب، جمع بين قبضة من طين الأرض، ونفخة من روح الله. فمن عرف جانب الطين، ونسيَ نفخة الروح، لم يعرف حقيقة الإنسان.

ومن أعطى الجزء الطيني فيه غذاءه وريه مما أنبتت الأرض، ولم يعط الجانب الروحي غذاءه من الإيمان ومعرفة الله، فقد بخس الفطرة الإنسانية حقها، وجهل قدرها، وحرمها ما به حياتها وقوامها.

قال ابن القيم[2] - رحمه الله:

«في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله».

وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله.

وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته، وصدق معاملته.

وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه، والفرار إليه.

---

(١) الحشر: ١٩.

(٢) في كتابه «مدارج السالكين».

وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضى بأمره، ونهيه، وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه.

وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته، والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تُسَدَّ تلك الفاقة أبدا».

وهذا ليس كلام عالم فحسب، بل كلام ذائق مجرب، يقول ما خبره وأحس به في نفسه، وما رآه ولاحظه في الناس من حوله.

إنها الفطرة البشرية الأصيلة التي لا تجد سكينتها إلا في الاهتداء إلى الله والإيمان به، والالتجاء إليه.

إنها الفطرة التي لم يملك مشركو العرب في جاهليتهم أن ينكروها مكابرة وعناداً:

(ولَئِن سَأَلتَهُم مَنْ خَلَقَ السماوات والأرض وسخَّر الشمسَ والقمرَ لَيَقُولُنَّ الله)[1].

وقد يتراكم على هذه الفطرة صدأ الشبهات أو غبار الشهوات، وقد تنحرف، وتتدنس باتباع الظن أو اتباع الهوى، أو التقليد الجاهل للأجداد والآباء، أو الطاعة العمياء للسادة والكبراء. وقد يُصاب الإنسان بداء الغرور والعجب فيظن نفسه شيئاً يقوم وحده، ويستغني عن الله!!

بيد أن هذه الفطرة الأصيلة تذبل ولا تموت، وتكمن ولا تزول. فإذا أصاب الإنسان من شدائد الحياة وكوارثها ما لا قبل له به، ولا يد له ولا للناس في دفعه، ولا رفعه، فسرعان ما تزول القشرة السطحية المضللة. وتبرز الفطرة العميقة الكامنة، وينطلق الصوت المخنوق المحبوس، داعياً ربه، منيباً إليه. كما قال تعالى:

(وإذا مَسَّكُم الضُّرُّ في البحر ضَلَّ مَن تَدعُون إلا إياهُ)[2].

---

(١) سورة العنكبوت: ٦١ وقد تكرر هذا المعنى في عدة سور.

(٢) الإسراء: ٦٧.

هذه الفطرة حقيقة أجمع عليها الباحثون في تاريخ الأمم، والأديان، والحضارات فقد وجدوا الإنسان منذ أقدم العصور يتدين، ويتعبد، ويؤمن بإله، حتى قال أحد كبار المؤرخين:

«لقد وجدت في التاريخ مدن بلا قصور، ولا مصانع، ولا حصون، ولكن لم توجد أبدا مدن بلا معابد».

ولهذا كانت مهمة رسل الله كافة في جميع الأعصار، هي تحويل الناس من عبادة المخلوقات إلى عبادة الخالق، وكان نداؤهم الأول إلى قومهم: (أن اعبُدوا الله واجتَنِبُوا الطاغوت)[١]، (اعبُدوا اللهَ ما لكمُ من إله غَيرُهُ)[٢].

أما وجود الله تعالى فكان أمرا مسلما به، مفروغا منه، لدى كافة الأمم في كل الأزمنة والعصور، ولم يجادل فيه الا قلة مسحوقة لا يقام لها وزن. ولهذا لم يَشْغَلْ رسلُ الله أنفسَهم باثبات وجود الله، واقامة الأدلة عليه، بل باثبات وحدانيته في ربوبيته وألوهيته، واستحقاقه أن يفرد بالعبادة دون غيره[٣]، وفي هذا يقول القرآن:

(وما أرسلنا من قَبلِكَ من رسُول إلا نُوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبُدون)[٤].

ثالثا: سلامة النفس من التمزق والصراع:

ومن ثمرات هذه الربانية ـ ربانية الغاية والوجهة ـ سلامة النفس البشرية من التمزق والصراع الداخلي، والتوزع والانقسام بين مختلف الغايات، وشتى الاتجاهات.

لقد اختصر الإسلام غايات الإنسان في غاية واحدة هي إرضاء الله تعالى، وركز همومه في هم واحد هو العمل على ما يرضيه سبحانه.

---

(١) النحل: ٣٦.

(٢) ذكر القرآن هذا القول على لسان نوح وهود وصالح وشعيب في سورة الأعراف: الآيات: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥، وقد تكرر معناه في عدة سور.

(٣) من كتاب: «الإيمان والحياة» للمؤلف ص ٩٤ ـ ص ٩٧.

(٤) الأنبياء: ٢٥.

ولا يريح النفس الإنسانية شيء كما يريحها وحدة غايتها، ووجهتها في الحياة، فتعرف من أين تبدأ، وإلى أين تسير، ومع من تسير.

ولا يُشْقي الإنسان شيء مثل تناقض غاياته، وتباين اتجاهاته، وتضارب نزعاته، فهو حيناً يُشرق، وحيناً يغرب، وتارة يتجه إلى اليمين، وطوراً يتجه إلى اليسار، ومرة يُرضي زيداً فيغضب عمرو، وأخرى يُرضي عمراً فيغضب زيد، وهو في كلا الحالين حائر بين رضا هذا وغضب ذاك.

ومَنْ في الناس يُـرضي كـلَّ نفس وبين هوى النفوس مدى بعيـد؟!

إن عقيدة التوحيد قد منحت المسلم يقيناً بأن لا رب إلا الله يُخاف ويُرجى، ولا إله إلا الله، يُجْتنب سخطه، ويُلتَمس رِضاه. وبهذا أخرج المسلم كل الأرباب الزائفة من حياته، وحطم كل الأصنام المادية والمعنوية من قلبه، ورضي بالله وحده رباً، وعليه يتوكل، وإليه يُنيب، وفي فضله يطمع، ومن قوته يستمد، وله يتودد، وإليه يحتكم، وبه يعتصم (ومَن يَعتَصِمْ بالله فقد هُدِيَ إلى صِراط مُستقيم)[1].

فأين هذا من المشرك بالله، الذي تعددت أربابه، وتضاربت وجهاته، وقد مثله القرآن الكريم بعبد له أكثر من سيد، وهم شركاء متشاكسون غير متوافقين، كل يأمره بضد ما يأمره به الآخر، ويريد منه غير ما يريده. فهمه متفرق، وقلبه مشتت. يقول تعالى: (ضرب اللهُ مثلاً رجلاً فيه شُركاء متشاكِسُون ورجلاً سَلَماً لرجل[2] هل يستويان مثلاً)[3].

وقال يوسف عليه السلام لرفيقه في سجن عزيز مصر، وقد كانا كقومهم ممن يعبدون مع الله آلهة أخرى: (يا صَاحِبَي السجن أأربابٌ مُتَفَرِّقون خيرٌ أم الله الواحد القهار. ما تَعبُدون من دُونِه إلا أسماء سميتُموها أنتُم وآباؤكُم ما أنزل الله بها من سلطان. إن الحكم إلا لله، أمر ألا تعبُدوا إلا إياهُ، ذلك

(١) آل عمران: ١٠١.

(٢) أي خالص الملكية لرجل واحد، لا شركة فيه ولا مشاكسة، فهو يعرف سيده، ويعرف ما يطلبه وما يرضيه، وكيف يرضيه. وهذا مثل المؤمن الموحد.

(٣) الزمر: ٢٩.

الدينُ القيم ولكن أكثرَ الناسِ لا يعلمون)[1].

رابعاً: التحرر من العبودية للأنانية والشهوات:

ومن ثمرات هذه الربانية: أنها ـ حين تستقر في أعماق النفس ـ تُحرر الإنسان من العبودية لأنانيته، وشهوات نفسه، ولذات حسه، ومن الخضوع والاستسلام لمطالبه المادية، ورغباته الشخصية.

وذلك أن الإنسان «الرباني» يَقِفُه إيمانه بالله وباليوم الآخر موقف الموازنة بين رغبات نفسه، ومتطلبات دينه. بين ما تدفعه إليه شهوته، وما يأمره به ربه. بين ما يمليه عليه الهوى، وما يمليه عليه الواجب، بين متعة اليوم، وحساب الغد، أو بين لذة عاجلة في دنياه، وحساب عسير ينتظره في أخراه.

وهذه الموازنة والمساءلة جديرة أن تخلع عنه نير العبودية للهوى والشهوات، وأن ترتفع به إلى أفق أعلى من الأنانية والبهيمية، أفق الإنسانية المتحررة التي تتصرف بوعيها وإرادتها، لا بوحي بطنها وفرجها وغريزتها الحيوانية.

فإذا لم يرتق إلى هذا الأفق الوضيء، فإنه يظل رانياً إليه، حريصاً عليه، متشبثاً به. وإذا انحدر عنه يوماً، فسرعان ما يعود إليه تائباً من ذنبه مستغفراً لربه.

فليس الإنسان الرباني هو الإنسان الملاك، الذي لا يقع في خطيئة ولا خطأ. فهذا لا وجود له إلا في عالم الخيال أو المثال. إنما الإنسان الرباني، هو الإنسان «الأواب» الذي يشعر بالتقصير كلما زلَّ، ويرجع إلى الله كلما أذنب: (إنه كان للأوابين غفورا)[2].

ولهذا عدد الله أوصاف المتقين الذين أعد لهم جنة عرضها السماوات والأرض وكان منها: (والذين إذا فعلوا فاحِشة أو ظلموا أنفسَهُم ذكروا

---

(١) يوسف: ٣٩، ٤٠.

(٢) الإسراء: ٢٥.

اللهَ، فاستَغْفَروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله، ولم يُصِرُّوا على ما فعلوا وهم يعلمون)[١].

ليس عجيباً إذن أن يتورط الإنسان في معصية الله، وتغلبه شهوته وهواه، فقديماً عصى آدم أبو البشرية ربه، وغره الشيطان حتى ارتكب ما نهاه الله عنه من الأكل من الشجرة، ولكنه ما أسرع ما تاب وأناب، وقرع باب ربه بالاعتراف والاستغفار: (ربَّنا ظلمنا أنفُسَنا، وإن لم تَغفِرْ لنا وترحَمنا لنكُونن من الخَاسرين)[٢]، (فتلقَّى آدمُ من ربِّه كلماتٍ فتاب عليه، إنه هو التوابُ الرحيم)[٣].

ولقد عصى آدم، وعصى إبليس، فغفر لآدم، ولم يغفر لإبليس، لأن معصية آدم كان سببها الضعف والنسيان: (فنَسِيَ ولم نَجِد لهُ عزماً)[٤] ثم أعقبتها توبة نصوح تمحو أثر الذنوب، كما تمحو إشراقة الصبح ظلمة الليل، (ثم اجتباهُ ربُّه فتابَ عليه وهدى)[٥] أما معصية إبليس فكان سببها الكبرَ والتمرد على أمر الله: (قال أنا خيرٌ منه، خَلَقتني من نار وخلقْتَهُ من طين)[٦] ولم يعقبها إلا الإصرار على الضلال والإضلال: (قال فبما أغويْتَني لأقْعُدَنَّ لهم صِراطكَ المستقيم. ثم لآتِيَنَّهم من بين أيديهم ومن خلفِهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ولا تَجدُ أكثرَهُم شَاكرين)[٧].

إن الإنسان الرباني قد تتاح له الشهوة الحرام، تعرض عليه بلا رقيب ولا حسيب من البشر، فيدعها حياء من الله، وحرصاً على أن يظله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، فيقول ما قال يوسف الصديق حين راودته امرأة العزيز عن نفسه: معاذ الله.

---

(١) آل عمران: ١٣٥.
(٢) الأعراف: ٢٣.
(٣) البقرة: ٣٧.
(٤) طه: ١١٥.
(٥) طه: ١٢٢.
(٦) سورة ص: ٧٦.
(٧) الأعراف: ١٧.

وإن الإنسان الرباني قد يتاح له المال الحرام، عن طريق الرشوة السافرة أو المقنَّعة، أو استغلال المنصب والنفوذ، أو غير ذلك من أكل أموال الناس بالباطل، فيرفضه، راضياً بالقليل، قانعاً بالحلال، موقناً أن كل لحم نبت من حرام فإن النار أولى به، وهو لا يُحب أن يشتري جهنم بشيء ولو كان ملك المشرق والمغرب.

حسبه أن يتلو قول الله تعالى: (قُل بفضل اللهِ وبرحمَتهِ فبذلك فَليفرحُوا هو خيرٌ مما يجمعون)[1].

وإن الإنسان الرباني قد يتاح له الجاه والمنصب الحرام عن طريق موالاة المعتدين، أي معاونة الظالمين، أو السير في ركب الطاغين، فيأبى عليه دينه، وينهاه إيمانه، متذكراً قول الله تعالى: (ولا تَركَنُوا إلى الذين ظلموا فتمسَّكُمُ النارُ ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تُنصرون)[2].

وإن الإنسان الرباني قد يتاح له أن يتمكن من خصمه، ويستطيع أن يُشفي منه نفسه، وأن يرد له الصاع صاعين، فينقع غلته بالانتقام منه، ويستمتع بقهره وإذلاله، ولكن ربانيته السمحة تأبى عليه إلا أن يقف موقف العفو والصفح والسماح، فيقول ما قال يوسف لإخوته: (لا تثريبَ عليكُم اليومَ، يَغفِرُ اللهُ لكُم، وهو أرحمُ الراحمين)[3]

تفاوت الغايات والأهداف لدى الأفراد:

والناس تتفاوت غاياتهم وأهدافهم ـ أفراداً وجماعات ـ تفاوتاً بعيداً، ويختلفون فيها اختلافاً شاسعاً، يرتفع فيه بعضهم إلى أفق الملائكة، وينزل به بعضهم إلى حضيض الشياطين.

وهـذا في الواقـع هـو الاختلاف الأكبر والأعمـق بين النـاس: أعني الاختلاف على الأهداف.

---

(١) يونس: ٥٨.
(٢) هود: ١١٣.
(٣) يوسف: ٩٢.

أما الاختلاف على الوسائل والطرائق، فهو أخف وأهون، بعد الاتفاق على الغاية والوجهة:

وقد قال أحد الشعراء:

كل من في الوجود يطلب صيداً غير أن الشباك مختلفات!

وكان أولى به أن يقول: غير أن الصيود ـ جمع صيد ـ مختلفات، لأن الخلاف الأكبر بين البشر، ليس على نوعية الشباك التي بها يحصلون على صيدهم. بل على الصيد ذاته: ماذا يكون؟ وأين يكون؟ وكم يكون؟ وكيف يكون؟!!

وإذا نظرنا إلى الأفراد وغاياتهم وجدناهم أصنافاً عديدة متنوعة:

(أ) فمنهم من يعيش حياته، غارقاً في لذات حسه، دائراً حول مطامح نفسه، فأقصى غايته، وجل اهتمامه، ومحور تفكيره، يدور حول عبادة «ذاته»، يطوف بها كالوثني بصنمه، لا يخترق حجاب الحس إلى ما وراء المادة، ولا يرنو ببصره إلى شيء وراء دنياه العاجلة، وشهواته البهيمية، ومطالبه المادية الأنانية الآنية.

وفي سبيل هذه الغاية، لا يبالي أن يضحي بكل ما يعوقه، ويقف في سبيله من القيم والمثل والمعتقدات، وبكل من يعوقه، ويقف في طريق شهواته من البشر.

يفعل ذلك جهرة إن ملك القدرة عليه، وكان ذا جاه وسلطان، وقد يرتكبه سراً وخفية، فراراً من طائلة العقاب والقانون.

في سبيل شهواته وأهوائه، ومطامعه ومصالحه، لا يهمه أن يبذل العرض، أو يهدر الشرف، أو يضيع الأهل والولد، أو يبيع الصديق، أو يخون الوطن، أو يتمرد على العقيدة.

لا يحجزه عن ذلك ضمير، فقد مات ضميره وأهيل عليه التراب، ولا إيمان، فلا إيمان لمن كان إلهه هواه، وشهوته معبوده. ولا عقل، فإن شهواته

عطلت عقله، وأهواءه أغلقت منافذ تفكيره: (ومن أضلُّ ممن اتبعَ هواه بغير هُدى من الله)[1].

وقد عرفنا هذا الصنف «الأناني» وجربناه، وعانينا منه الأمرين، ولاقت الأمم قديماً وحديثاً على يديه الويلات بعد الويلات.

وعليه نبه القرآن الكريم في كثير من آياته، مثل قوله تعالى: (ولقد ذَرَأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس، لهم قلوبٌ لا يفقَهُون بها ولَهُم أعيُن لا يُبصِرُون بها ولهم آذان لا يسمعون بها، أولٰئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون)[2].

وفي سورة أخرى يقول: (أرأيتَ من اتخذ إلٰهَهُ هواهُ أفأنت تكون عليه وكيلاً. أم تَحسَبُ أنَّ أكثرَهُم يسمعون أو يعقلون، إن هم إلا كالأنعام، بل هُم أضلُّ سبيلاً)[3].

هذا الصنف البهيمي الأناني ـ عابد هواه ـ قد خرب أجهزة المعرفة التي منحه الله إياها من الأسماع والأبصار والقلوب، وعاش حياة أدنى مرتبة من حياة الأنعام وأضل سبيلا.

وإنما كانت كذلك لأمرين:

أولها: أن الأنعام تؤدي مهمتها المنوطة بها في الوجود. فلم تر بقرة تمردت على أن تحلب، ولا جملاً تمرد على أن يُركب، وإنما تؤدي رسالتها في خدمة الإنسان.. تحرث الأرض، وتسقي الحرث، وتحمل الاثقال، وتدر اللبن، وتعطي من أشعارها، وأصوافها، وأوبارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين.

والثاني: أن هٰذه الأنعام لم تُؤتَ ما أُوتيَ الإنسان من المواهب الفكرية والروحية، ولم يسخر لها ما في السماوات وما في الأرض، ولم يبعث لها رسول، ولم ينزل عليها كتاب.

---

(١) القصص: ٥٠.

(٢) الأعراف: ١٧٩.

(٣) الفرقان: ٤٣، ٤٤.

وإنما الذي أُوتيَ هذا كله هو الإنسان، فإذا أهمل هذه النعم، ولم يقم بشكرها، ونسي رسالته، وعاش لبطنه وفرجه وشهوته، كما تعيش الدواب، كان ـ بلا ريب ـ أضل منها سبيلا.

(ب) ومن الناس من لا هدف له في الحياة إلا إذلال الناس، والإضرار بهم، والكيد لهم، كأن رسالته التي خلق لها هي الإفساد في أرض الله، والعدوان على خلق الله.

استحالت نعم الله في يديه إلى سياط للايذاء، وأسلحة للفتك، وآلات للتدمير.

هذا الصنف كالذي قبله، يعيش لدنياه العاجلة ولأنانيته البشعة ولكن يفترقان في المزاج فقط.

فإذا كان اتجاه الصنف الأول أنانياً شهوانياً، فهذا ترى اتجاهه أنانيا عدوانياً.

الصنف الأول فقد خصيصة الإنسان، واستحال إلى حيوان. وهذا الصنف فقد كذلك خصيصة الإنسان، ولكنه استحال إلى شيطان.

فالشيطان لا هم له إلا الإفساد والكيد والتضليل والإغواء. وهذا الصنف هو الذي لعنه الله وذمه في كتابه بقوله: (والذين ينقضُون عهد الله من بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمرَ الله به أن يُوصَل، ويفسِدون في الأرض، أولٰئك لهمُ اللعنةُ، ولهم سوءُ الدار)[1]

هذا الصنف إذا تمكن من رقاب البشر يوماً ما بولاية أو رياسة أو نفوذ، وجدته نمروداً كنمرود إبراهيم يقول: أنا أحيي وأميت، كما يحيي الله ويميت! أو فرعوناً كفرعون موسى، يذبح الابناء، ويستذل النساء! أو طاغية كنيرون روما أو غيره من جبابرة التاريخ.

فإذا لم يكن له سلطان نمرود ولا فرعون، كان طاغية صغيراً، أو ذليلاً

(١) الرعد: ٢٥.

لطاغية كبير .

والقرآن قد حكم بالإثم والهلاك على فرعون ووزيره وجنوده جميعا ، لأن الذي يخلق فرعون الكبير إنما هم أعوانه من الفراعنة الصغار . قال تعالى : (إن فرعون وهامان وجنودَهما كانوا خاطِئين)[1] وقال سبحانه : (فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين . وجعلناهُم أئمة يدعون إلى النار ، ويومَ القيامةِ لا يُنصَرُون . وأتبعناهُم في هذه الدنيا لعنَة ، ويوم القيامة هُم من المقبوحين)[2] .

قـد يغطي هذا الصنف الذي خَبُثَ باطنه بظاهر مزخرف ، ولسان يخدع الناس بمعسول القول ، وحلو الكلام .

فإذا سبرت غوره ، لم تجد وراء هذا الظاهر إلا باطناً خراباً ، وضميراً ميتاً ، ونفساً متطاولة على الخلق ، مستكبرة عن الحق ، مقبلة على الشر ، معرضة عن الخير . كذلك الذي وصفه القرآن فقال : (ومِنَ الناسِ من يُعجبُكَ قَولُه في الحياةِ الدُّنيا ، ويُشْهِدُ الله على ما في قلبه وهو ألدُّ الخِصَام . وإذا تولى سَعى في الأرض ليُفسِد فيها ، ويُهلِكَ الحرث والنسلَ ، واللهُ لا يُحب الفساد . وإذا قِيل لهُ اتق الله أخذته العزة بالإثم ، فحسبُه جهنم ، ولبئسَ المِهَاد)[3] .

(حـ) وثمت صنف آخر غير هذا وذاك :

صنف لا يعبد نفسه ، ولا يدور حول ذاته دوران الحمار في الرحا ، أو الثور في الساقية !

إنه يعبد الله وحده لا شريك له ، فهدفه مرضاته ، وغايته محبته ، والقرب منه وحسن الاتصال به ، لا يريد إلا وجهه ، ولا يبتغي إلا مثوبته . لا يحب ولا يبغض إلا فيه ، ولا يعطي ولا يمنع إلا له .

أما الدنيا ، فهي عنده أداة لا هدف ، ووسيلة لا غاية ، فهو يملكها ولا

---

(١) القصص : ٨ .

(٢) القصص : ٤٠-٤٢ .

(٣) البقرة : ٢٠٤-٢٠٦

تملكه، ويسخرها ولا تسخره، ويجعلها في يده، ولكن لا يملأ بها قلبه.

إنه يدعو ربه بما دعا به محمد عليه الصلاة والسلام: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا».

وهذا هو الصنف «الرباني» الذي عاش لله وبالله.

صلاته ونسكه لله، ومحياه ومماته لله، ونيته وعمله لله، وجهده وجهاده لله.

إنه يفعل الخير للناس، ويسدي المعروف للضعفاء والمساكين، ولكنه لا يطلب منهم ثمناً لمعروفه، لأن غايته أن يحمده الله لا أن يحمدوه، وأن يرضى عنه الله لا أن يُرضوه: (ويُطعِمون الطعامَ على حُبه مِسكيناً ويتيماً وأسيراً. إنما نطعمكم لوجـه الله، لا نريدُ منكمُ جزاءً ولا شكورا)[1].

إنه يكف يده عن الشر، ولسانه عن الأذى، ولا يقابل السيئة بالسيئة، بل يدفع بالتي هي أحسن، لا خشية من أحد بل خشية من الله جل جلاله.

ألم تر إلى ابن آدم المؤمن الخير، حين هدده أخوه بالقتل، لم يرد عليه السوء بمثله، بل قال في أدب وكرم: (لئِن بسطتَ إليَّ يدك لِتقتُلنِي ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك، إني أخافُ الله رب العالمين)[2].

إنه يدعو إلى الخير، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويُصلح بين الناس، ويُميط الأذى عن الطريق.

إنه يعلم الجاهل، ويهدي الحائر، ويرشد الضال.. لا يطلب جزاءه إلا من الله، وشعاره في ذلك ما ذكره الله تعالى على ألسنة رسله، حين قال كل رسول لقومه: (وما أسألُكُم عليه من أجرٍ، إن أجري إلا على رب العالمين)[3].

إنه يضع رأسه على كفه، ويقدم روحه فداء للحق، ويبذل النفس والمال

---

(١) الإنسان: ٨، ٩.
(٢) المائدة: ٢٨.
(٣) الشعراء: ١٠٩

ذياداً عن القيم والحرمات. ولكنه لا يفعل هذا ليذكر اسمه في قائمة الابطال، ولا ليرى مكانه، وتتحدث عنه اجهزة الأعلام، ولا ليحوز غنيمة دنيوية، ولكن لتكون كلمة الله هي العليا، وليوفي بالصفقة التي عقدها الله معه حين اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة.

والعجيب أن هذا الصنف الذي فني عن حظ نفسه من أجل حق ربه، والذي نسي ذاته وذكر الله وحده. هذا الصنف هو الوحيد الذي يعمل في الحقيقة من أجل نفسه: من أجل نجاتها وسعادتها.

إنه ـ عند التأمل ـ أوعى الأصناف وأحرصها على سعادة نفسها ولكنه ـ بنور بصيرته، وعمق تفكيره ـ لم يبع آجلاً بعاجل، ولا باقياً بفان. وقد قال أحد حكماء الصالحين: لو كانت الدنيا ذهباً يفنى والآخرة خزفاً يبقى، لوجب على العاقل أن يختار الخزف الباقي على الذهب الفاني. فكيف إذا كانت الدنيا هي الخزف الفاني، والآخرة هي الذهب الباقي؟!

والحقيقة التي لا ريب فيها، أن النسبة بين هذه الحياة الدنيا، وبين الآخرة، أكبر وأبعد وأعمق مما بين الخزف، والذهب بكثير وكثير. ولكن الأمثال تضرب للتقريب والتوضيح.

ولا شك أن أخسر الناس، وأظلمهم لنفسه، من حرمها سعادة الأبد، ونعيم الأبد، من أجل متعة عارضة، وشهوة زائلة.

وإن أربح الناس بضاعة من باع لذة فانية، أو شهوة عاجلة، واشترى جنة عرضها السماوات والأرض، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر: (فلا تعلمُ نفسٌ ما أخفي لهم من قُرة أعيُن جزاءً بما كانوا يعملون)[1].

والواقع أن هذا الصنف لم يخسر دنياه حين آثر آخرته، فوجه لها إرادته، وسعى لها سعيها وهو مؤمن.

لقد كسب الحياتين، وجمع الحسنتين: حسنة الدنيا، وحسنة الآخرة اللتين

(١) السجدة: ١٧.

يحرص عليهما المؤمنون، ويسألونهما الله سبحانه: (ربنا آتنا في الدُّنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة)[1].

إن الربانية قد تحرم الإنسان من بعض اللذائذ العاجلة، وبعض المنافع القريبة، ولكنها تحميه بهذا الحرمان ـ من شرور ومخاطر كانت ستعود بالضرر المؤكد عليه، أو على مجتمعه، أو على الإنسانية.. كما سنشير إلى ذلك بعد.

وهي مع هذا تمنحه ـ في مقابل هذا الحرمان الجزئي الموقوت ـ سكينة نفسية، وطمأنينة روحية، لا تقدر قيمتها بمال، لأنها هي سر السعادة التي ينشدها كافة البشر، فلا يجدها إلا القليل.

وهي السعادة التي قال فيها بعض المؤمنين الذين ذاقوا حلاوتها:
«لو علم بها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف!»
لقد كان الصنف الأول هو الإنسان الحيواني.
وكان الصنف الثاني هو الإنسان الشيطاني.
أما هذا الصنف الثالث فهو الإنسان الرباني.

إن تسمية كل من الصنفين الأولين بالإنسان تسمية مجازية. أما الصنف الثالث فهو وحده الإنسان.

وسائل الإسلام لغرس الربانية في النفس والحياة:

والإسلام يسعى إلى غرس هذه الربانية في نفس كل مسلم وفي حياته، بوسائل شتى، وأساليب متنوعة.

طريق العبادات:

عن طريق العبادات المفروضة لزوماً، والمندوبة استحباباً: من صلاة تتكرر كل يوم وليلة خمس مرات، هي للروح أشبه بالوجبات للجسم، تجعل المؤمن دائماً على موعد مع الله تعالى. كلما غرق الإنسان في لجج الحياة اليومية ومشاغلها، قام المؤذن ينادي الله أكبر، الله أكبر، حي على الصلاة، حي على

---

(١) البقرة: ٢٠١.

الفلاح، فينتشل المسلم نفسه من دنياه ـ دنيا الصراع والمتاع ـ ليقف بين يدي ربه دقائق يفضي إليه فيها بذات نفسه، داعياً بالخير لنفسه ولأمته، مترقياً من المادية إلى الروحية، ومن الأنانية إلى الغيرية، سائلاً ربه بلسان الجماعة كلها: (اهدنا الصراط المستقيم)[1].

ومن صيام يتكرر شهراً في كل عام، يحرم المسلم فيه نفسه من شهوات الطعام والشراب والجنس، كل يوم من تبين الفجر إلى غروب الشمس، تربية للإرادة، وتدريباً على التقوى، وعلى كمال العبودية لله سبحانه. وفي هذا يقول الحديث القدسي: «الصيام لي وأنا أجزي به، يدع طعامه من أجلي، ويدع شرابه من أجلي، ويدع زوجته من أجلي، ويدع لذته من أجلي».

ومن زكاة يغالب بإخراجها شح نفسه، ويزكي بها ماله وروحه، ويشكر بها نعمة ربه عليه، وفي هذا يقول القرآن: (خذ من أموالهم صدقة تُطَهِّرهُم وتُزَكّيهِم بها)[2] ولهذا سميت «زكاة» لما توحي به هذه الكلمة من معاني الطهارة والنماء والبركة، على عكس كلمة «الضريبة» التي توحي بمعنى القهر والإجبار والغرامة. ولهذا يطلب من المسلم أن يؤديها طيبة بها نفسه، داعياً ربه أن يتقبلها منه قائلاً: «اللهم اجعلها مغنماً، ولا تجعلها مغرماً».

ومِن حج، يُفارقُ فيه المسلم وطنه ومسقط رأسه، ويدع أهله وعشيرته، مهاجراً إلى الله، باذلاً من نفسه وماله، ومحتملاً المكاره والمشقة في ذات الله، حتى يصل إلى الأرض المقدسة، حيث أول بيت وضع لعبادة الله في الأرض، وحيث ذكريات إبراهيم وإسماعيل، وهاجر عليهم السلام من قبل، وذكريات محمد ـ ﷺ ـ ودعوته من بعد.

هنالك يتجرد المسلم من ثيابه المعتادة ـ بما تحمله من مظاهر التفاوت والطبقية والعنصرية والإقليمية ـ ليلبس ثياباً أشبه بأكفان الموتى، مستعلياً على المادية ومظاهرها، متجهاً إلى الله بقلبه ولسانه، شعاره ونشيده: «لبيك اللهم

(١) الفاتحة: ٦.
(٢) التوبة: ١٠٣.

لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».

وفوق هذه الفرائض الأساسية الحتمية، التي هي الحد الأدنى لتكييف علاقة المسلم بالله - يفتح الإسلام باب التطوع بالخيرات، والتقرب إلى الله بالنوافل والمستحبات، من صلوات بعد الخمس المكتوبة، ومن صيام بعد رمضان المفروض، ومن صدقات بعد الزكاة الواجبة، ومن حج وعمرة بعد حجة الفريضة. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، ويتسابق المتقون.

وفي الحديث القدسي الذي رواه البخاري: عن الله تعالى: «ما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها..، ولئن استعاذني لأعيذنه، ولئن سألني لأعطينه».

ليس المقصود بهذه العبادات - فرضها ونفلها: أن تصل المسلم بخالقه لحظات أدائها فقط ثم ينفرط عقده بعد ذلك، ويخلد إلى الأرض، ويتبع هواه.

كلا، فإن مهمة هذه العبادات أن تغرس في ضمير مؤديها روح التقوى لله جل شأنه، وأن تمنحه شحنة روحية تذكره بالله كلما نسي، وتقوي عزمه كلما ضعف، وتنير طريقه كلما انطفأت من حوله المصابيح.

لا يرضى الإسلام أن يكون المسلم «ربانيا» في المسجد يركع ويسجد ويتشرع ويبتهل، فإذا خرج من المسجد انقلب من رباني إلى «حيواني»، أو «شيطاني».

ولا يرضى من المسلم أن يكون «ربانياً» في «رمضان»، فإذا طويت أعلام رمضان طويت معه العبادة والطاعة لله، كأنما كان يعبد رمضان لا رب رمضان. ولهذا كان السلف الصالح من المسلمين يقولون: كن ربانياً ولا تكن رمضانياً.

ولا يرضى من المسلم أن يكون «ربانياً» طالما كان بجوار البيت الحرام، والمسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمشاعر المقدسة، فإذا أتم نسكه، وقضى حجه، وعمرته، وزيارته، وشرع في رحلة العودة، نسيَ «الجو الرباني»، و «المعنى الرباني»، وغرق في لجة الحياة المادية كما يغرق الغافلون.

أجل، لا يرضى الإسلام ذلك للمسلم، وإنما يريد له صلة دائمة بمولاه، في المسجد، والطريق، والبيت، والعمل، في رمضان وشوال وسائر الشهور، في جو المناسك الطهور في مكة، وعرفات، والمدينة، وبعد العودة إلى الأوطان، في كل مكان، وكل زمان، وكل حال.

ولهذا يوصي النبي - ﷺ - فيقول: «اتق الله حيثما كنت»(١).

ويقول القرآن: (ولله المشرقُ والمغربُ، فأينما تُولُّوا فَثَمَّ وجهُ الله)(٢).

ويقول الرسول: «أحبُّ الأعمال إلى الله أدومُها وإن قل»(٣).

طريق الآداب:

وهناك طريق آخر لغرس الربانية في ضمير المسلم وفي حياته. ذلك هو طريق الآداب اليومية التي تتخلل حياة المسلم: من الأكل والشرب، واللبس والتزين، والنوم واليقظة، والركوب والسفر، والجلوس والمشي، إلى غير ذلك من الأحوال الفردية والاجتماعية.

فالإسلام ينتهز فرصة هذه الأمور التي لا تخلو منها حياة الإنسان، ليربط المسلم عن طريقها بالله تعالى.

فإذا جلس على مائدة طعامه وأراد أن يبدأ الأكل، ذكر الله الذي هيأ له الأسباب حتى وصل إليه هذا الرزق الطيب، فكانت بدايته: «بسم الله».

وإذا أحس بالشبع، وفرغ من طعامه، كان ختامه: «الحمد لله» وإذا شرب

---

(١) رواه الترمذي.
(٢) البقرة: ١١٥.
(٣) رواه البخاري.

الماء قال: الحمد لله الذي جعله عذباً فراتاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا!

وإذا لبس ثوباً جديداً قال: الحمد لله الذي كساني هذا من غير حول مني ولا قوة. اللهم إني أسألك من خيره وخير ما هو له، وأعوذ بك من شره وشر ما هو له.

وكذلك يقول هذا الدعاء عند كل نعمة يستفيدها.

وإذا ركب دابة أو سيارة أو نحوها قال: سبحـــان الـــذي سخر لنا هذا، وما كنا له مُقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون.

وإذا شرع في سفر قال: اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم اصحبنا في سفرنا، واخلفنا في أهلنا.

وإذا عاد من سفره قال: آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون.

وإذا وضع جنبه ليخلد إلى النوم قال: باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه.

وإذا استيقظ لينطلق في موكب الحياة قال: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور.

حتى لحظة الاستمتاع بالشهوة الجنسية - وهي شهوة حيوانية عاتية - لا ينسى المسلم العنصر الرباني، الذي يخفف من سعار الشهوة، وينقل صاحبها إلى أفق أرفع، حين يقول إذا أتى زوجته: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا.

وهكذا كلما دارت ساقية الحياة بالمسلم، لم يغفل عن ربه، ولم ينس صلته به، بل يظل شاعرا بقربه منه، وأنسه به، ومعيته له، فالمعاني «الربانية» تدور معه حيثما دار، وتسير معه أينما سار.

طريق التربية والتكوين:

وثمت طريق ثالثة لغرس الربانية وتثبيتها، ولعلها أعظم الوسائل خطراً،

وأبعدها أثراً، وهي التربية.

فلا بد أن تقوم التربية في البيت أولاً ـ وفي المدرسة ثانياً ـ على غرس هذه الربانية في عقول الناشئة وضمائرهم، باستخدام أحسن الوسائل وأفضل الأساليب.

وإذا كان الأب مسؤولاً عن تغذية طفله مادياً، فلا يهمله حتى يتعرض جسمه للهزال، أو للمرض، أو للموت، فهو مسؤول عن تغذيته روحياً، فلا يجوز له أن يهمله حتى يتعرض لما هو أشد خطراً من هزال البدن أو مرضه، أو حتى موته. وذلك حين يتعرض لموت «القلب» أو «الروح» وفي ذلك هلاكه للأبد!

ومن هنا كانت المسؤولية خطيرة «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته»[1] (يا أيها الذين آمنوا قُوا أنفُسَكُم وأهلِيكُم ناراً)[2].

ومن هنا أمر الآباء أن يدربوا أبناءهم على طاعة الله، وأداء فرائضه منذ بلوغهم سناً يقبلون فيها التعليم، وهي السابعة، والتشديد عليهم إذا بلغوا العاشرة كما جاء في الحديث: «مروا أولادكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر»، والأمر بالضرب هنا ليس مقصوداً به التعذيب أو التنكيل، ولكن لإشعار الصبي والصبية بمدى جدية الأب في طلبه للعبادة، وغضبه من عصيانه في ذلك، كما يغضب من أي أمر يطلبه من ولده فيرفضه، ولا يلقى له بالاً.

والأم شريك الأب في المسؤولية، فهي راعية في بيتها، ومسؤولة عن رعيتها، كما أكد ذلك النبي ـ ﷺ ـ، ولعل مخالطتها للصغار ـ وبخاصة البنات ـ وتأثيرها فيهم يكون أقوى من الأب في كثير من الأحيان.

والمدرسة مسؤولة كذلك عن تربية أبنائها وبناتها على معاني الربانية. ولا يكفي المدرسة أبداً أن تزود التلميذ بالخبرات والمهارات، المادية والفنية، أو بالحقائق والمعلومات عن البيئة والحياة من حوله. ثم تدعه ضالاً جاهلاً

---

(١) متفق عليه.

(٢) التحريم: ٦.

بقضايا الوجود الكبرى، التي تحيره، وتلقي عليه أسئلة لا يجد لها جواباً من أين جاء؟ ومن جاء به؟ وإلى أين يذهب بعد رحلة الحياة؟ وهل له من رسالة بين مجيئة وذهابه، أو بين حياته وموته؟ وما هي؟ومن يملك تحديدها؟ وما جزاؤها إن هو أداها على وجهها، أو فرط في أدائها؟

إن الإيمان بالله هو الذي يجيب عن هذه الأسئلة بما يقنع العقول، ويريح الضمائر، ويشرح الصدور، أعني إيمان الإسلام خاصة، لأنه هو الذي خلا من أغاليط البشر، وأوهام البشر، وشطحات البشر، وتناقضات البشر.

والمدرسة التي لا تغرس الإيمان في النفس، لا تخرج إلا أجيالاً حائرة متناقضة، تركب سفينة الحياة، وتخوض عباب محيطها المضطرب، بلا ربان ولا مرشد، ولا خريطة ولا «بوصلة» ولا منار، لا تهتدي إلى شاطىء، ولا أمل في أن تهتدي.

إن التربية والتعليم من مهمة النبوة، وقد كان مما امتن الله به على العرب أن بعث فيهم رسولا من أنفسهم: (يتلوا عليهِم آياتِهِ ويُزكّيهم ويُعلمهُم الكتابَ والحكمة)[1]

وتحدث النبي ﷺ عن نفسه فقال: «إن الله بعثني معلماً ميسراً».[2]

وأشاد بفضل المعلمين فقال: «إن الله وملائكته وأهل السماوات وأهل الأرض، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في البحر، ليصلون على معلمي الناس الخير»[3].

وأعظم خير يعلم للناس، أن يعرفوا ربهم، فيعرفوا بذلك مبدأهم ومصيرهم وسر وجودهم.

أي: يعرفوا أنفسهم على حقيقتها، فمن عرف ربه فقد عرف نفسه. كما أن من عرف نفسه - كما هي - فقد عرف ربه.

---

(١) آل عمران: ١٦٤.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه الترمذي.

طريق الإعلام والتوجيه والتثقيف الشعبي العام:

والتثقيف، والتوجيه والإعلام ـ بكل مؤسساته وأجهزته ووسائله ـ يجب أن ترعى هذه الربانية وتؤكدها.

المساجد، بخطبها، ودروسها، ومواعظها، وصلواتها، وما لها من إشعاع روحي وفكري وأخلاقي.

الإذاعة المسموعة والمرئية: ببرامجها الثقافية والترفيهية والإخبارية. وبكل ما تملكان من تأثير على الأفكار، والعواطف والعزائم.

الصحافة: اليومية والأسبوعية والشهرية والفصلية والسنوية، بصورها وكلماتها، بأخبارها وتعليقاتها.

الكتب، بكل أنواعها وألوانها وموضوعاتها: في العلوم والآداب والفنون، الشعر والنثر، والقصة والمسرحية، الكتب الأكاديمية والكتب الشعبية، دوائر المعارف والموسوعات، والوسائل والكتيبات.

المسرح والسينما، بما لها من تأثير عن طريق الحدث والصورة، والكلمة والحوار.

كل أدوات التأثير والتوجيه يجب أن تتعاون جميعاً في تحقيق «الربانية»، وتأكيدها وتثبيتها في النفس والحياة، هدفاً وغاية لسعي الإنسان، وحركة الإنسان.

ولا يجوز في نظر الإسلام أن يترك للمساجد وحدها مهمة تأكيد «الربانية» وتثبيت مبانيها، وتوضيح معانيها، في حين تعمل المؤسسات التوجيهية والإعلامية والتثقيفية الأخرى على إشاعة معان أخرى تناقض الربانية، أو تشكك فيها، أو تنتقصها من أطرافها.

وكيف يؤدي المسجد رسالته إذا كانت الأجهزة الأخرى ـ وهي تصابح الناس وتماسيهم بامكاناتها الرهيبة ـ تخفض ما يعليه، وتهدم ما يبنيه؟

وهـل يبلـغ البنيـانُ يـومـاً تمامـه ... إذا كنـتَ تبنيـــه وغيرُك يهدِمُ؟!

على أن كل مؤسسة في مجتمع الإسلام لا تستمد حق بقائها فيه إلا بمقدار ما تسهم به في الحفاظ على ربانيته، التي هي أساس وجوده، سواء كان هذا الإسهام مباشرة أم غير مباشرة، من قريب أم من بعيد.

بل يأمر الإسلام بهدم كل مؤسسة لا تقوم على تقوى من الله ورضوان، ولو اتخذت صورة المسجد الذي تؤدى فيه الصلاة ظاهراً، كما أمر الله رسوله ﷺ بهدم مسجد الضرار الذي اتخذه المنافقون ضراراً، وكفراً، وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل.

طريق التشريع:

ويأتي دور التشريع، ليقوم بحياطة «الربانية»، وتقويتها، وحمايتها من كل أذى أو عدوان عليها، أو انتقاص منها.

ولهذا يرفض المجتمع المسلم الإلحاد والإباحية، ويعاقب على الردة والفسوق أعني على الجهر بهما.

فأما من استخفى بكفره أو بفسقه، فحسابه على الله، لأن المستخفي لا يضر إلا نفسه.

أما المجاهر المعالن فيضر المجتمع كله، عن طريق العدوى، أو تطاير الشرر. ولهذا أجمع فقهاء الإسلام على عقوبة تارك الصلاة والمجاهر بالإفطار في رمضان، وإن اختلفوا في تحديد العقوبة، حتى وصل بها بعضهم إلى حد القتل لتارك الصلاة خاصة، إذا أصر على تركها عمداً بلا عذر. أما من تركها استخفافاً بحرمتها، أو إنكاراً لفرضيتها، فهو مارق يعاقب عقوبة المرتدين بالإجماع.

وليس في هذا ـ أي عقوبة المرتد والإباحي، وهدم مؤسسات الكفر والنفاق ـ مصادرة للحرية، فإن حرية الفرد مقيدة بألا تمس نظام المجتمع، وأسسه العقائدية والاجتماعية. كما أن حرية المرتد في المجاهرة بردته تصطدم

بحرية المؤمنين في الحفاظ على إيمانهم، وهم جمهور المجتمع وسواده الأعظم، فكانت رعاية حريتهم أولى.

★ ★ ★

٢ ـ ربانية المصدر والمنهج:

ذكرنا ما يتعلق بالمعنى الأول للربانية، وهو ربانية الغاية والوجهة، وبقي المعنى الآخر، وهو ربانية المصدر والمنهج. ونعني به أن المنهج الذي رسمه الإسلام للوصول إلى غاياته وأهدافه، منهج رباني خالص، لأن مصدره وحي الله تعالى إلى خاتم رسله محمد ﷺ.

لم يأت هذا المنهج نتيجة لإرادة فرد، أو إرادة أسرة، أو إرادة طبقة، أو إرادة حزب، أو إرادة شعب، وإنما جاء نتيجة لإرادة الله، الذي أراد به الهدى والنور، والبيان والبشرى، والشفاء والرحمة لعباده. كما قال تعالى يخاطبهم: (يا أيُّها الناسُ قد جَاءكُم بُرهان من ربكُم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً)[١]، (يا أيُّها الناسُ قد جاءتكُم مَوعِظةٌ من ربّكم وشِفاءٌ لما في الصدور وهُدىً ورحمة للمؤمنين)[٢].

وقال يخاطب رسوله:

(وما أرسلنَاكَ إلا رحمةً للعالمين)[٣].

(ونَـزَّلنـا عليـكَ الكتـابَ تِبيـانـاً لكـلِّ شيء وهُـدىً ورحمة وبُشرى للمسلمين)[٤].

(كتابٌ أنزلناه إليك لتُخرِجَ الناسَ من الظُّلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد)[٥].

---

(١) النساء: ١٧٤.
(٢) يونس: ٥٧.
(٣) الأنبياء: ١٠٧.
(٤) النحل: ٨٩.
(٥) إبراهيم: ١.

موضوع الرسول في هذا المنهج الإلهي:

الله تعالى هو صاحب هذا المنهج، ولهذا يُضاف إليه فيقال: منهج الله، أو «صراط الله» على حد تعبير القرآن العزيز، وإضافته إلى الله تعنى أن الله ـ جل شأنه ـ هو واضعه ومحدده، كما أنه غايته ومنتهاه.

أما الرسول ـ ﷺ ـ فهو الداعي إلى هذا المنهج أو هذا الصراط، المبين للناس ما اشتبه عليهم من أمره. يقول تعالى مخاطبا رسوله: (وكذلِكَ أوحينا إليك رُوحاً من أمرِنَا ما كُنتَ تَدري ما الكتابُ ولا الإيمانُ ولكن جعلناهُ نُوراً نَهدي به من نَشاءُ مِن عِبادِنَا، وإنك لتَهْدِي إلى صِراطٍ مُستقيم. صِراطِ اللهِ الذي له ما في السموات وما في الأرض، ألا إلى الله تصيرُ الأمور)[1].

ويقول تعالى: (وإذا تُتْلى عليهم آياتُنا بيناتٍ، قال الذين لا يَرجُون لِقاءَنا ائتِ بقُرآن غير هذا أو بَدِّلهُ، قُل ما يكونُ لي أن أُبَدِّلَهُ مِن تِلقاء نفسي، إن أتبعُ إلا ما يُوحىٰ إليَّ، إني أخاف إن عصيتُ ربي عذابَ يومٍ عظيم. قُل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به، فقد لَبِثتُ فيكُم عُمراً من قبله، أفلا نعقلون؟!)[2].

ويقول: (والنجم إذا هوى. ما ضلَّ صاحِبكُم وما غوى. وما ينطقُ عن الهوى. إن هو إلا وَحي يُوحى)[3].

ومن تدبر القرآن وجد الرسول ـ ﷺ ـ فيه مجرد عبد مأمور تخاطبه سلطة أعلى منه، محيطة به، قادرة عليه، تملك عتابه ولومه إذا اجتهد فأخطأ في بعض الأمور، كما في قصة ابن أم مكتوم، و أسرى بدر، والمنافقين المتخلفين في غزوة تبوك، وزينب بنت جحش، وغيرها. فالحقيقة أن القرآن هو كلام الله وحده وتنزيل رب العالمين.

فليس لمحمد ـ ﷺ ـ من هذا القرآن إلا التلقي والحفظ (سَنُقرِئُكَ فلا

---

(١) الشورى: ٥٢، ٥٣.

(٢) يونس: ١٥، ١٦.

(٣) النجم: ١-٤.

تنسى)[1] ثم التبليغ والدعوة: (يا أيُّها الرسول بلغ ما أُنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته)[2] ثم التفسير والبيان: (وأنزلنا إليك الذكر لتُبينَ للناسِ ما نُزِّلَ إليهم ولعلهم يتفكرون)[3].

والسنة التي بينت القرآن، هي نفسها وحي إلهي، ولكنه وحي غير متلو ولا معجز كالقرآن الكريم.

وما جاء في هذه السنة عن طريق الاجتهاد، فإن الله تعالى لا يقره على الخطأ فيه، بل ينزل الوحي مصححاً ومصوباً، أو مثبتاً ومؤكداً.

ميزة الإسلام بين المناهج القائمة في العالم:

إن الإسلام هو المنهج أو المذهب أو النظام الوحيد في العالم، الذي مصدره كلمات الله وحدها، غير محرفة ولا مبدلة ولا مخلوطة بأوهام البشر، وأغلاط البشر، وانحرافات البشر.

والمناهج أو الأنظمة التي نراها في العالم إلى اليوم ثلاثة، فيما عدا الإسلام طبعا:

١ - منهج، أو مذهب، أو نظام مدني بشري محض، مصدره التفكير العقلي، أو الفلسفي لبشر فرد، أو مجموعة من الأفراد، كالشيوعية، والرأسمالية والوجودية، وغيرها.

٢ - منهج أو نظام ديني بشري كذلك. مثل الديانة البوذية القائمة في الصين، واليابان، والهند، والتي لا يعرف لها أصل إلهي، أو كتاب سماوي، فمصدرها إذن فكر بشري.

٣ - منهج أو مذهب ديني محرف، فهو - وإن كان إلهياً في أصله - عملت فيه يد التحريف والتبديل فأدخلت فيه ما ليس منه، وحذفت منه ما هو فيه، واختلط فيه كلام الله بكلام البشر، فلم يبق ثمت ثقة بربانية

(١) الأعلى: ٦.
(٢) المائدة: ٦٧.
(٣) النحل: ٤٤.

مصدره، وذلك كاليهودية والنصرانية، بعد ثبوت التحريف في التوراة والإنجيل نفسيهما، فضلاً عما أضيف إليهما من شروح وتأويلات ومعلومات بشرية، بدلت المراد من كلام الله.

أما الإسلام فهو المنهج الفذ الذي سلم مصدره من تدخل البشر، وتحريف البشر، ذلك أن الله تعالى تولى حفظ كتابه، ودستوره الأساسي بنفسه، وهو القرآن المجيد، وأعلن ذلك لنبيه ولأمته فقال: (إنَّا نحنُ نزلنا الذكرَ وإنَّا له لحافظون)[1].

وكان وعد ربي حقاً، فقد صدقت القرون المتوالية ـ على رغم ما حل بالمسلمين فيها من كوارث مروعة، ونوازل هائلة ـ هذه النبوءة القرآنية. وبقي القرآن، كما أنزله الله، وكما تلاه محمد ﷺ، وكما نقله عنه أصحابه، وتلقاه عنهم من تبعهم بإحسان، ولم تزل الأجيال تلو الأجيال تتوارثه، وتتعبد بتلاوته، وترتيله وحفظه وكتابته، ولا عجب أن ظل ـ كما كان ـ مكتوباً في المصاحف، متلواً بالألسنة، محفوظاً في الصدور منقولاً إلينا ـ بالتواتر اليقيني ـ نقلاً حرفياً، بنفس طريقة كتابته، منذ عهد الخليفة الثالث عثمان. رغم تطور طرائق الرسم والإملاء. وبنفس طريقة تلاوته منذ العهد النبوي، حتى أصوات الغن، والمد، والإظهار، والإدغام، والإقلاب، والإخفاء.

الإسلام منهج رباني خالص:

إن الإسلام منهج رباني، مئة في المئة (١٠٠٪).

عقائده وعباداته، وآدابه وأخلاقه، وشرائعه ونظمه، كلها ربانية إلهية. أعني في أسسها الكلية، ومبادئها العامة، لا في التفريعات والتفصيلات والكيفيات.

عقيدة ربانية:

عقائد الاسلام عقائد ربانية، مستفادة من كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، من القرآن الكريم الذي أرسى دعائمها، ووضح

---

(١) الحجر: ٩.

معالمها، ومن صحيح السنة المبينة للقرآن.

ليست هذه العقائد من وضع مجمع من المجامع، ولا من إضافة هيئة من الهيئات، ولا من إملاء «بابا» من البابوات.

ليس لأحد من تلاميذ ـ محمد ﷺ ـ، ولا من أئمة الإسلام وفقهائه الكبار، أن يغير ويبدل في عقيدة الإسلام بالزيادة أو النقص أو التحوير، كما فعل سانت بولس في العقيدة النصرانية، حتى إن بعض الكتاب الغربيين المحدثين ليسمون المسيحية الحاضرة «مسيحية بولس» وليست مسيحية عيسى ابن مريم.

وليس لمؤتمر، ولا لمجمع، ولا لجماعة أيا كانت مكانتها أن تضيف شيئاً إلى العقيدة الإسلامية، أو تحذف منها شيئاً. على غرار ما فعلت المجامع المسيحية، ابتداء من «مجمع نيقية» الشهير سنة ٣٢٥م فما بعده من مجامع بعضها قرر ألوهية المسيح، وبعضها قرر موقع الروح القدس من الشركة الثلاثية المعروفة: الأب والابن والروح القدس، وبعضها أعطى البابا سلطة إصدار قرارات الحرمان، وصكوك الغفران، وبعضها، وبعضها.

أما العقيدة الإسلامية فلا تتلقى إلا من الوحي الإلهي.

إن العقيدة إنما هي قضايا صادقة أو هي حقائق عن الوجود ورب الوجود. فليست العقيدة من قبيل ما نسميه في المنطق والبلاغة «إنشاء»، إنما هي من قبيل «الخبر» لأنها خبر عن القضايا الكبرى في الوجود: عن الله وأسمائه وصفاته، عن عوالم الغيب، عن مستقبل الحياة والإنسان، عن الجزاء وأنواعه وصوره، وغير ذلك مما وراء الطبيعة المشاهدة مما لا يدركه الحس، ولا يهدى إلى تفصيله العقل.

ومن ثم لا يملك أن يخبر عن هذه القضايا إلا من يحيط بها علماً.

وليس ذلك إلا صاحب هذا الكون، وهو الله تعالى.

أما البشر المخلوقون، فلا يدخل علم هذه الغيبيات في اختصاصهم، وإذا

قالوا في ذلك شيئاً، كان قولاً بغير علم، وبغير برهان. وفي هذا يقول القرآن منكراً على المشركين معتقداتهم في الملائكة وغيرها: (وجعلُوا الملائِكة الذينَ هُم عِبادُ الرحمن إناثاً، أشَهِدُوا خَلْقَهم، ستُكتبُ شهادَتُهم ويُسئلون)[١]، ويقول سبحانه: (ما أشهدتُهم خَلقَ السماوات والأرض ولا خلقَ أنفُسِهم)[٢]، ويقول الله تعالى: (يعلمُ ما بين أيديهم وما خَلفَهم ولا يُحيطون به علما)[٣].

ولو أن بعض الناس حاول أن يحدث فيها شيئاً من عند نفسه، لكانت محاولته مردودة عليه بأمر صاحب الرسالة نفسه - ﷺ - الذي قال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[٤] أي باطل مردود عليه. ويقول تعالى: (اتبِعُوا ما أنزِلَ إليكُم من ربكُم، ولا تتبعوا من دُونِه أولياء)[٥].

عبادات ربانية:

والعبادات الإسلامية - أعني الشعائر التي يُتعبَّد بها لله تعالى - عبادات ربانية.

فالوحي الإلهي هو الذي رسم صورها، وحدد أشكالها، وأركانها وشروطها، وعين زمانها فيما يشترط فيه الزمان، ومكانها فيما يشترط فيه المكان.

ولم يقبل من أحد من الناس - مهما كان مجتهداً في الدين، ومهما علا كعبة في العلم والتقوى - أن يبتكر صوراً، وهيئات من عنده للتقرب إلى الله تعالى، فإن هذا افتئات على صاحب الحق الأوحد في ذلك، وهو الله تعالى صاحب الخلق والأمر.

ومن فعل شيئاً من ذلك فقد شرع في الدين ما لم يأذن به الله، وعد عمله بدعة وضلالة، ورد عليه عمله، كما يرد الصيرفي النقاد العملة الزائفة.

---

(١) الزخرف: ١٩.
(٢) الكهف: ٥١.
(٣) طه: ١١٠.
(٤) متفق عليه.
(٥) الأعراف: ٣.

فقد جاء الإسلام في مجال العبادة بأصلين كبيرين، لا يتساهل في واحد منها قيد شعرة:

الأول: ألا يعبد إلا الله. فلا عبادة لأحد سواه، ولا لشيء سواه، كائناً ما كان، في الأرض أو في السماء. عاقلاً أو غير عاقل. وهذا ما تقتضيه ربانية الغاية والوجهة.

والثاني: ألا يعبد الله إلا بما شرعه. وما شرعه إنما يعرف بواسطة رسله المبلغين عنه. وخاتمهم محمد ﷺ، الذي نسخ شرعه كل شرع قبله، والذي كتب الله له الخلود، وتكفل بحفظه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وما عدا ذلك فهو أهواء وبدع مرفوضة، وإن دفع إليها حُسنُ النية، وشدة الرغبة في زيادة التقرب إلى الله جل شأنه. ولكن النية الصالحة وحدها لا تعطي العمل صفة القبول ما لم تكن صورته مشروعة بالنص الثابت.

فالعمل المقبول له ركنان: أن يكون خالصاً لله، وأن يكون على سنة رسول الله.

أما محدثات العصور، ومبتدعات العقول، فلا مكان لها في دين الله، كما جاء في الحديث «إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»[1] ويقول القرآن مُنكراً: (أم لهم شُركاء شرعوا لهم مِنَ الدينِ ما لم يَأذن به الله)[2].

وبهذا سد الإسلام باباً من أوسع أبواب الغلو، والتحريف، والتنطع، ولم يعط للمبتدعات في العبادة حق البقاء، وإن ظهرت يوماً بفعل الجهل، والهوى أو استمرت زمناً بتأييد المستغلين للدين، أو المتاجرين باسمه.

ولهذا لم يخل قطر من الأقطار، ولا عصر من الأعصار، من إناس يدعون إلى السنة، ويقاومون البدعة، غير مبالين بما يصيبهم من الأذى في سبيل الله.

كما أن عبادات الإسلام الكبرى بقيت في جوهرها، وأصولها سالمة من

---

(١) رواه أبو داو د، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) الشورى: ٢١.

التحريف، بعيدة عن يد المسخ والتبديل، التي تعرضت له العبادات في أديان أخرى.

آداب ربانية:

والآداب والأخلاق الإسلامية آداب ربانية: بمعنى أن الوحي الإلهي هو الذي وضع أصولها، وحدد أساسياتها، التي لا بد منها لبيان معالم الشخصية الإسلامية، حتى تبدو متكاملة متماسكة متميزة في مخبرها ومظهرها عالمة بوجهتها وطريقها، إذا التبست على غيرها المسالك، واختلطت الدروب.

ولا غرو أن وجدنا القرآن الكريم ذاته يعنى برسم المعالم الرئيسة لأدب المسلم، وخلق المسلم، من الإحسان بالوالدين، وخاصة إذا بلغا الكبر أو أحدهما، والإحسان بذوي القربى، ورعاية اليتيم، وإكرام الجار ذي القربى ورعاية اليتيم، وإكرام الجار ذي القربى، والجار الجنب، والصاحب بالجنب، وابن السبيل، والخدم، والعناية بالفقراء والمساكين، وتحرير الرقاب، والصدق في القول، والإخلاص في العمل، وغض الأبصار وحفظ الفروج، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، والتواصي بالرحمة، والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بين الناس بالعدل، والوفاء بالعهود، وترك المنكرات، واجتناب الموبقات من الشرك، والسحر، والقتل، والزنى، والسكر، والربا، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات المؤمنات، والتولي يوم الزحف، وغيرها من كبائر الإثم وفواحشه إلى غير ذلك من الأخلاق الإيجابية والسلبية، الفردية والاجتماعية.

حتى إننا نجد القرآن يعلم المسلمين أدب المشي إذا مشوا: (واقصد في مَشْيِكَ)[1]، (الذين يمشون على الأرض هونا)[2]، (ولا تمش في الأرض مَرحًا، إنك لن تخرِقَ الأرضَ ولن تبلغَ الجبال طولاً)[3].

---

(١) لقمان: ١٩.

(٢) الفرقان: ٦٣.

(٣) الإسراء: ٣٧.

وأدب التزاور إذا تزاوروا (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بُيوتاً غير بيوتِكُم حتى تستأنسوا وتُسلِمُوا على أهلها، ذلِكُم خيرٌ لكُم لعلكُم تَذكَّرُون. فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخُلُوا حتى يُؤذَن لكم، وإن قيل لكُم ارجعوا فارجِعوا، هو أزكى لكُم، والله بما تعملون عليم)[١].

وأدب الجلوس إذا تجالسوا (يا أيُّها الذين آمنوا إذا قيل لكُم تفسَّحوا في المجالس فافسحُوا يَفسح الله لكُم، وإذا قيل انشزوا فانشِزوا، يرفَع اللهُ الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات، والله بما تعملون خبير)[٢].

فضلاً عما زخرت به السنة من آداب تتعلق بالأكل والشرب، واللباس والتجمل، والنوم واليقظة، والدخول والخروج، والسفر والعودة، والتحية والاستئذان، حتى العطاس والتثاؤب، وقضاء الحاجة أو قضاء الشهوة.

ثم إن المصدر الأساسي للإلزام الخلقي في الإسلام، ليس هو اللذة ولا المنفعة، ولا العقل ولا الضمير، ولا العرف ولا المجتمع ولا التطور، ولا غير ذلك مما ذهبت إليه مدارس الفلسفة الخلقية، مثالية وواقعية. وإنما مصدر الإلزام، ومقياس الحكم الخلقي - في الأساس - هو الوحي الإلهي.

فالخير ما أمر الله به، والشر ما نهى الله عنه.

وبعبارة أخرى: الحسن ما حسنه الشرع، والقبيح ما قبحه الشرع.

وليس معنى هذا أن الشرع يأتي بتحسين ما قبحه العقل، أو تقبيح ما يحسنه، فلم يُعْرف ذلك في الأخلاق الإسلامية، ولا في الشريعة الإسلامية كلها. فهي شريعة ملائمة للفطرة السليمة، موافقة للعقل الرشيد.

ولا غرو أن أطلق القرآن على أصحاب الأخلاق الفاضلة وصف (أولي الألباب) كما عقب على بعض أوامره ونواهيه بمثل قوله: (ذلكُم وصَّاكُم به لعلكُم تعقِلون)[٣].

---

(١) النور: ٢٧، ٢٨.
(٢) المجادلة: ١١.
(٣) الأنعام: ١٥١.

ولذلك نجد الأخلاق في الإسلام، لا تعتمد على مجرد الأمر الصارم، والتكليف التعبدي، بل تعتمد على مخاطبة العقول، واستثارة الضمائر، في أخلاق مفهومة معللة بالحكم، والمصالح المترتبة عليه في الدنيا والآخرة، من مثل قوله تعالى في وصية لقمان لابنه: (يا بُنَيَّ أقِمِ الصلاةَ وأمُر بالمعروف وانه عَنِ المنكَر واصْبِر على ما أصابك، إن ذلك من عزم الأمور. ولا تُصعِّر خدك للناس ولا تمشِ في الأرض مَرَحاً، إن الله لا يُحِبُّ كلَّ مختال فخور. واقصد في مشيك، واغضض من صوتك، إن أنكر الأصواتِ لصوتُ الحَمِير)[(١)].

ومثل ذلك في سورة الإسراء: (فتَقعُد ملوماً محسوراً)[(٢)]. (إنه كان فاحِشةً وساء سبيلاً)[(٣)]. (إنك لن تخرِقَ الأرض ولن تبلُغ الجبال طُولا)[(٤)] الخ.

تشريعات ربانية:

والتشريعات الإسلامية لضبط الحياة الفردية والأسرية، والاجتماعية والدولية، تشريعات ربانية: أعني في أسسها، ومبادئها، وأحكامها الأساسية، التي أراد الله أن ينظم بها سير القافلة البشرية، ويقيم العلاقات بين أفرادها وجماعاتها على أمتن القواعد، وأعدل المبادىء، بعيداً عن قصور البشر، وتطرفات البشر، وأهواء البشر، وتناقضات البشر.

وكانت هذه هي المزية الأولى للتشريع الإسلامي على ما سواه من التشريعات قديمها وحديثها، شرقيها وغربيها، ليبراليها، واشتراكيها. فهو التشريع الفذ في العالم الذي أساسه وحي الله وكلماته المعصومة من الخطأ، المنزهة عن الظلم: (وتمت كَلِمة ربِّكَ صِدقاً وعدلاً، لا مُبدِّل لكلماته، وهو السميع العليم)[(٥)]

---

(١) لقمان: ١٧-١٩.
(٢) الإسراء: ٢٩.
(٣) الإسراء: ٣٢.
(٤) الإسراء: ٣٧.
(٥) الأنعام: ١١٥.

وبهذا تقرر في الأصول الإسلامية أن المشرع الوحيد هو الله.

فهو الذي يأمر وينهى، ويحلل ويحرم، ويكلف ويلزم، بمقتضى ربوبيته وألوهيته وملكه لخلقه جميعاً، فهو رب الناس، ملك الناس، إله الناس. له الخلق والأمر، وله المِلك والمُلك[1]، وله الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم، وإليه يرجعون.

وليس لأحد غيره حق التشريع المطلق، إلا ما أذن الله فيه مما ليس فيه نص ملزم، فهو في الحقيقة مجتهد أو مستنبط أو مقنن، وليس مشرعاً أو حاكماً. حتى الرسول - ﷺ - نفسه ليس مشرعاً، وإنما وجبت طاعته، لأنه مبلغ عن الله. فأمره من أمر الله: (من يُطعِ الرسولَ فقد أطاعَ الله)[2].

فالحكم الشرعي - بما يتضمن من إيجاب أو استحباب. أو تحريم أو كراهة. أو إباحة - إنما هو لله تعالى. وليس لأحد غيره. ولهذا يعرف الأصوليون الحكم الشرعي بأنه: «خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين اقتضاء أو تخييرا» ويعنون بالاقتضاء الطلب. سواء كان طلباً لفعل - وهو يشمل الوجوب والندب - أم طلباً لكف وترك. وهو يشمل التحريم والكراهة. كما يعنون بالتخيير الإباحة. وهو ما كان للمكلف خيرة في فعله وتركه.

فالمخاطب والمكلف والملزم، والآمر والناهي، ليس إلا الله عز وجل.

وقد دمغ القرآن بالشرك الذين أعطوا سلطة التشريع المطلق لبعض البشر من رجال الأديان الذين بدلوا كلمات الله. وغيروا شرع الله فأحلوا ما حرم الله. وحرموا ما أحل الله، افتراء على الله.

وفي هذا يقول في شأن أهل الكتاب: (اتخذوا أحبارهُم ورُهبانهُم أرباباً من دُون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليَعبدوا إلهاً واحداً، لا إله إلا هو، سبحانه عما يُشرِكُون)[3].

---

(١) المِلك والمُلك: الأولى بكسر الميم والثانية بضمها.

(٢) النساء: ٨٠.

(٣) التوبة: ٣١.

اعتبر القرآن هؤلاء الأحبار، والرهبان أرباباً، أو آلهة معبودين من دون الله، وما كانت عبادتهم إلا طاعته في إحلال ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله، أي: اعطاءهم حق التشريع فيما لم يأذن به الله تعالى. كما فسر ذلك النبي - ﷺ - لعدي بن حاتم الطائي.

فقد كان عدي تنصر في الجاهلية. فلما دخل على النبي - ﷺ - وهو يقرأ هذه الآية من سورة التوبة: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) قال: يا رسول الله. ما كُنا نعبدهم! (كأنه حصر مفهوم العبادة في الركوع والسجود والصلاة ونحوها) فقال النبي - ﷺ - : «ألم يكونوا يُحلّونَ لكُم الحرامَ فتحلوه. ويحرمون عليكم الحلال فتحرموه؟! قال: بلى. قال: فتلك عبادتكم إياهم».

ولهذا نجد القرآن الكريم يعقب على كثير من الأحكام، والتشريعات بلفت الأنظار إلى ربانية مصدرها، لتطمئن الأنفس وتستريح الضمائر، وتنشرح الصدور للاستجابة والتنفيذ، ولا يتلكأ متلكىء أو يتوانى متوان في الطاعة لحكم الله.

من هذه التعقيبات قوله تعالى في ختام آية قسم الصدقات من سورة التوبة: (**فريضةً من الله، واللهُ عليم حكيم**)[1] ونحوها في ختام آية قسمة المواريث الأولى في سورة النساء: (**آباؤُكُم وأبناؤُكُم لا تدرون أيُّهم أقربُ لكم نفعاً، فريضةً من الله، إن اللهَ كان عليماً حكيماً**)[2].

وفي ختام آية المواريث الثانية: (**وصيةً من الله، والله عليمٌ حليمٌ. تلك حُدود الله..**)[3].

وفي آخر آية في سورة النساء، وهي متعلقة بالميراث أيضاً يختمها بقوله (يُبينُ اللهُ لكُم أن تضلوا، واللهُ بكل شيء عليم)[4].

---

(١) التوبة: ٦٠.
(٢) النساء: ١١
(٣) ١٢، ١٣.
(٤) النساء: ١٧٦.

وفي سورة الطلاق يعقب على أحكام الآية الأولى بقوله: (وتِلك حُدود الله، ومن يتعد حُدودَ اللهِ فقد ظلم نفسه)[1] وبعد ثلاث آيات يذكر فيها بعض الأحكام ثم يقول: (ذلك أمرُ الله أنزله إليكم)[2].

وبعد أحكام النساء، والمؤمنات المهاجرات في سورة الممتحنة يعقب فيقول: (ذلكُم حكم الله يحكم بينكُم، والله عليم حكيم)[3].

وهذه التعقيبات وأمثالها ترشد وتذكر، وتنبه وتؤكد، على الأصل الذي تستمد منه هذه التشريعات، فهي ربانية سماوية، تصدر ممن لا راد لأمره ولا معقب لحكمه.

من ثمرات ربانية المصدر:

وإذا كان للربانية بالمعنى الأول ـ ربانية الغاية ـ تلك الثمرات والمزايا التي ذكرناها من قبل، فإن للربانية بالمعنى الثاني ـ ربانية المصدر والمنهج ـ مزايا وثمرات، لعلها أعظم خطراً، وأبعد أثراً.

وكل هذه المزايا والثمرات نتيجة لسبب واحد، هو كمال الله تعالى، صاحب هذا المنهج، ومصدره، أما المناهج والمذاهب الأخرى، فيلازمها نقص البشر، وعجز البشر، وقصور البشر.

١ ـ العصمة من التناقض والتطرف:

من هذه المزايا أو الآثار، العصمة من التناقض والاختلاف الذي تعانيه المناهج، والأنظمة البشرية، والمحرفة.

فالبشر ـ بطبيعتهم ـ يتناقضون، ويختلفون من عصر إلى عصر، بل في العصر الواحد من زمن إلى آخر، ومن قطر إلى قطر، بل في القطر الواحد من إقليم إلى آخر، وفي الإقليم الواحد من بيئة إلى أخرى، وفي الأمة الواحدة

(١) الطلاق: ١.
(٢) الطلاق: ٥.
(٣) الممتحنة: ١٠.

من شعب إلى آخر، وفي الشعب الواحد من فئة إلى أخرى، وفي الفئة الواحدة من فرد إلى آخر، بل في الفرد الواحد من حالة إلى أخرى، ومن وقت إلى آخر.

فكثيراً ما رأينا تفكير الفرد، في مرحلة الشباب يناقض تفكيره في مرحلة الكهولة، أو الشيخوخة، وكثيراً ما وجدنا أراءه ساعة الشدة والفقر، تخالف آراءه في ساعة الرخاء والغنى.

فإذا كانت هذه هي طبيعة العقل البشري، وضرورة تأثره بالزمان والمكان، والأوضاع، والأحوال، فكيف نتصور براءته من التناقض والاختلاف، فيما يضعه من مناهج للحياة، سواء كانت مناهج للتصور والاعتقاد، أم للعمل والسلوك؟! إن الاختلاف والتناقض لازمة من لوازمه لا ريب، وصدق الله العظيم إذ يشير إلى ذلك فيقول: (أفلا يتدبَّرون القرآن؟ ولو كانَ مِن عندِ غيرِ اللهِ لوجدُوا فيه اختلافاً كثيراً)[1].

ومن مظاهر هذا التناقض ما نراه ونلمسه في كل الأنظمة البشرية والدينية، الوضعية والمحرفة، من إفراط أو تفريط، كما هو واضح من موقفها من الروحية والمادية، أو من الفردية والجماعية، أو من الواقعية والمثالية، أو من العقل والقلب، أو من الثبات والتطور، وغيرها من المتقابلات، التي وقف كل مذهب أو نظام عند طرف منها مغفلاً الطرف الآخر، أو جائراً عليه.

والسر في هذا ـ بعد القصور البشري العام ـ أن تفكير الإنسان في وضع فلسفة أو منهاج، أو مذهب، غالباً ما يكون نتيجة ـ مباشرة أو غير مباشرة ـ لرد فعل، وانعكاساً لأوضاع آنية وأحوال بيئية، تؤثر في تصوره للأشياء، وحكمه على الأمور، شعر أم لم يشعر، شاء أم لم يشأ.

ولا يستطيع منصف أن ينزه أكابر الفلاسفة، ـ وإن توافر فيهم الإخلاص

(١) النساء: ٨٢.

في طلب الحقيقة ـ، من التأثر بأزمانهم وبيئاتهم، فضلاً عن التأثر بوراثاتهم وأمزجتهم الشخصية.

٢ ـ البراءة من التحيز والهوى:

ومن ثمرات هذه الربانية في الإسلام: اشتماله على العدل المطلق، وبراءته من التحيز والجور واتباع الهوى، مما لا يسلم منه بشر، كائناً من كان.

أجل، لا يخلو بشر غير معصوم ـ مهما يعل كعبه في العلم والتقى ـ من التأثر بالأهواء، والميول، والنزعات الشخصية، والأسرية، والإقليمية، والحزبية، والقومية. وإن كان في ظاهر أمره يرغب في الإنصاف، ويحرص على الحياد.

فإذا كان لهذا البشر هوى معين، أو ميول خاصة، توجهه وتلون تفكيره، وتميل بحكمه إلى حيث يهوى ويحب، فهذه هي الطامة. فقد اجتمع فيها الهوى المتبع إلى القصور البشري الذاتي، فزاد الطين بلة: (ومن أضلُّ ممن اتبع هواهُ بغير هُدى مِن الله)[١].

وقد قال الله لنبيه **داود**: (يا داوود إنَّا جعَلناكَ خليفةً في الأرض فاحكُم بين الناسِ بالحق ولا تَتَّبع الهوى فيضلك عن سبيل الله)[٢] وسبيل الله هو سبيل الحق والعدل. المنزه عن التحيز والجور والانحراف.

ومقتضى ما ذكرناه: أنه لا يسلم منهج، أو نظام وضعه البشر، أو تدخلوا فيه. من التأثر بالأهواء المضلة عن سبيل الله، المتحيزة إلى جانب دون جانب، أو فريق دون فريق.

أما «نظام الله»، أو «منهج الله» فقد وضعه رب الناس للناس. وضعه من لا يتأثر بالزمان والمكان، لأنه خالق الزمان والمكان، ومن لا تحكمه الأهواء والنزعات، لأنه المنزه عن الأهواء والنزعات، ومن لا يتميز لجنس

(١) القصص: ٥٠.
(٢) سورة ص: ٢٦.

ولا لون ولا فريق، لأنه رب الجميع، وكلهم عباده، فلا يتصور تحيزه لفئة دون أخرى، ولا لجيل دون غيره، ولا لشعب على حساب غيره من الشعوب.

ومن ثم اعتبر القرآن ما عدا شريعة الله وحكمه «أهواء»، يجب الحذر منها ومن أصحابها. يقول تعالى لرسوله: (ثم جَعلناك على شريعة من الأمر فاتَّبعها ولا تتَّبع أهواءَ الذين لا يعلمون)[1]، (وأن احكمُ بينَهم بما أنزل الله ولا تَتَّبع أهواءهم واحذرهم أن يَفْتِنوك عن بعض ما أنزل الله إليك)[2].

٣ ـ الاحترام وسهولة الانقياد:

ومن ثمرات هذه الربانية كذلك أنها تضفي على النظام، أو المنهج الرباني قدسية واحتراماً لا يظفر بهما أي نظام، أو منهج من صنع البشر.

ومنشأ هذا الاحترام والتقديس اعتقاد المؤمن بكمال الله تعالى، وتنزهه عن كل نقص. في خلقه وأمره. أنه تعالى أحسن كل شيء خلقه، وأتقن كل شيء صنعه. كما قال في كتابه: (صُنع اللهِ الذي أتقنَ كل شيء)[3]. وكذلك أحكم كل شيء شرعه. وكل كتاب أنزله. كما قال تعالى عن القرآن الكريم: (كتابٌ أحكِمَت آياته ثُم فُصِّلَت من لدُن حكيم خبير)[4].

فهو الحكيم فيما خلق وقدر. والحكيم فيما أمر ونهى: (ما ترى في خلقِ الرحمن من تفاوت)[5]، ولا تجد في شرع الرحمن من تهافت. فتبارك الله أحسن الخالقين. وأحكم الحاكمين.

ويتبع هذا الاحترام والتقديس: الرضا بكل تعاليم هذا النظام وأحكامه. وتقبله بقبول حسن، مع انشراح الصدر، وإقناع العقل، وطمأنينة القلب. فهذا من موجبات الإيمان بالله ورسوله: (فلا ورَبك لا يُؤمنون حتى يُحكِّمُوكَ فيما

---

(١) الجاثية: ١٨.
(٢) المائدة: ٤٩.
(٣) النمل: ٨٨.
(٤) هود: ١.
(٥) الملك: ٣.

شَجَرَ بينَهم ثُم لا يجِدوا في أنفُسهم حرجاً مما قضَيْتَ ويسلِّموا تسليماً)[1].

ويلزم من هذا الاحترام والتقديس وحسن القبول: المسارعة إلى التنفيذ والسمع والطاعة في المنشط والمكره، دون تلكؤ أو تكاسل، أو تحايل على الهرب من تكاليف النظام والتزاماته، والتقيد بأوامره ونواهيه.

ونكتفي هنا بضرب مثلين يبينان مواقف المسلمين والمسلمات في العهد النبوي، من شرع الله تعالى وأمره ونهيه.

أولهما: ما وقع من المؤمنين بالمدينة عقب تحريم الخمر.

وقد كان للعرب ولع بشربها وأقداحها ومجالسها، وقد عرف الله ذلك منهم فأخذهم بسنة التدرج في تحريمها، حتى نزلت الآية الفاصلة تحرمها تحريماً باتاً، وتعلن أنها: رجسٌ مِن عمِل الشيطان)[2] وبهذا حرم النبي - ﷺ - شربها، وبيعها، وإهداءها لغير المسلمين. فما كان من المسلمين حينذاك إلا أن جاؤوا بما عندهم من مخزون الخمر، وأوعيتها، فأراقوها في طرق المدينة إعلاناً عن براءتهم منها.

ومن عجيب أمر الانقياد لشرع الله أن فريقاً منهم حين بلغته هذه الآية كان منهم من في يده الكأس قد شرب بعضها، وبقي بعضها في يده، فرمى بها مِن فيه، وقال ـ إجابة لقول الله: (فهل أنتم مُنتهون)[3]: قد انتهينا يا رب!

ولو وازنا هذا النصر المبين في محاربة الخمر، والقضاء عليها في البيئة الإسلامية، بالإخفاق الذريع الذي منيت به الولايات المتحدة الأمريكية،[4] حين أرادت يوماً أن تحارب الخمر بالقوانين والأساطيل، لعرفنا أن البشر لا يصلحهم إلا تشريع السماء، الذي يعتمد على الضمير والإيمان قبل الاعتماد على القوة والسلطان.

---

(١) النساء: ٦٥.
(٢) المائدة: ٩٠.
(٣) المائدة: ٩١.
(٤) اقرأ هذه الموازنة بتفصيل في كتابنا «الإيمان والحياة» في موضوع «الإيمان والأخلاق».

وثانيهما: موقف النساء المسلمات الأول مما حرم الله عليهن من تبرج الجاهلية، وما أوجب عليهن من الاحتشام والتستر، فقد كانت المرأة في الجاهلية تمر كاشفة صدرها، لا يواريه شيء، وكثيراً ما أظهرت عنقها وذوائب شعرها، وأقراط آذانها فحرم الله على المؤمنات تبرج الجاهلية الأولى، وأمرهن أن يتميزن عن نساء الجاهلية، ويخالفن شعارهن، ويلزمن الستر والأدب في هيئاتهن وأحوالهن، بأن يضرب بخمرهن على جيوبهن، أي: يشددن أغطية رؤوسهن بحيث تغطي فتحة الثوب من الصدر، فتواري النحر والعنق والأذن.

وهنا تروي لنا السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها كيف استقبل نساء المهاجرين والأنصار في المجتمع الإسلامي الأول، هذا التشريع الإلهي، الذي يتعلق بتغيير شيء هام في حياة النساء، وهو البيئة والزينة والثياب.

قالت عائشة: «يرحم الله نساء المهاجرين الأول، لما أنزل الله: (وليضرِبْن بخُمُرِهن على جُيُوبهن)[١]، شققن مروطهن ـ أكسية من صوف أو خز ـ فاختمرن بها»[٢].

وجلس إليها بعض النساء يوماً، فذكرن نساء قريش وفضلهن، فقالت: «إن لنساء قريش لفضلاً، وإني والله ما رأيت من نساء الأنصار، ولا أشد تصديقاً لكتاب الله، ولا إيمانا بالتنزيل. لقد أنزلت سورة النور: (وليضربن بخمرهن على جيوبهن)، فانقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته، وعلى كل ذي قرابته، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل ـ المزخرف الذي فيه تصاوير ـ فاعتجرت به ـ شدته على رأسها ـ تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه فأصبحن وراء رسول الله ـ ﷺ ـ معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان»[٣].

(١) النور: ٣١.
(٢) رواه: البخاري.
(٣) ذكره ابن كثير في آية النور عن ابن أبي حاتم.

هذا هو موقف النساء المؤمنات مما شرع الله لهن، موقف المسارعة إلى تنفيذ ما أمر، واجتناب ما نهى، بلا تردد، ولا توقف ولا انتظار، أجل لم ينتظرن يوماً أو يومين أو أكثر حتى يشترين، أو يخطن أكسية جديدة تلائم غطاء الرؤوس، وتتسع لتضرب على الجيوب، بل أي كساء وجد، وأي لون تيسر، فهو الملائم والموافق، فإن لم يوجد شققن من ثيابهن ومروطهن، وشددنها على رؤوسهن، غير مباليات بمظهرهن الذي يبدون به كأن على رؤوسهن الغربان، كما وصفت أم المؤمنين»[1].

★ ★ ★

٤ ـ التحرر من عبودية الإنسان للإنسان:

ومن ثمرات هذه الربانية ـ فوق ذلك كله ـ تحرر الإنسان من العبودية للإنسان.

ذلك أن العبودية أنواع وألوان، وإن من أشدها خطراً، وأبعدها أثراً لهو خضوع الإنسان لإنسان مثله، يحل له ما شاء متى شاء، ويحرم عليه ما شاء كيف شاء، ويأمره بما أراد، فيأتمر، وينهاه عما يريد فينتهي. وبعبارة أخرى يضع له «نظام حياة»، أو «منهج حياة»، فلا يسعه إلا الإذعان والتسليم والخضوع.

والحق أن الذي يملك وضع هذا النظام، أو المنهج، والزام الناس به، واخضاعهم له هو الله وحده، رب الناس، ملك الناس، إله الناس. فمن حقه وحده أن يأمرهم وينهاهم، وأن يحل لهم ويحرم عليهم، بمقتضى ربوبيته تعالى وخلقه لهم، وإنعامه عليهم بكل أجناس النعم وأصنافها وأفرادها: (وما بكُم من نعمةٍ فَمِنَ الله)[2].

فإذا ادعى بعض الناس لأنفسهم ـ أو ادُّعي لهم ـ هذا الحق، فقد نازعوا

---

(١) من كتاب «الحلال والحرام في الإسلام» للمؤلف: ص ٣٤٠ ـ ص ٣٤٢.
(٢) النحل: ٥٣.

الربوبية حقها، وزاحموا الألوهية في سلطانها، واتخذوا من عباد الله عباداً لهم، وهم مخلوقون مثلهم، يجري عليهم من سنن الله ما يجري عليهم.

ولا غرو أن أنكر القرآن الكريم على أهل الكتاب تنازلهم عن حريتهم التي ولدوا عليها، ورضاهم بالعبودية لأحبارهم ورهبانهم، الذين أصبحوا يملكون سلطة التشريع لهم، أمراً ونهياً، وتحليلاً وتحريماً، دون أن يكون لأحد حق في اعتراض أو نقد أو مراجعة، وقد دمغ القرآن أهل الكتاب لذلك بالشرك وعبادة غير الله.

وفي هذا يقول القرآن الكريم: (اتخذُوا أحبارهُم ورُهبانهُم أرباباً من دونِ اللهِ والمسيحَ ابنَ مريم وما أمروا إلا ليعبُدوا إلهاً واحداً، لا إله إلا هو، سبحانه عما يشركون)[1].

ولما كانت دعوة الإسلام دعوة تحرير شامل للإنسان من العبودية لغير الله، وجدنا القرآن الكريم يوجه نداءه إلى أهل الكتاب كافة أن يتحرروا من هذه العبودية لغير الله، وأن يفردوا الله وحده بالعبادة والخضوع، وذلك في قوله تعالى: (يا أهل الكتاب تَعالَوْا إلى كلمة سواء بيننا وبينكُم ألا نعبُد إلا الله ولا نُشرِك به شيئاً. ولا يتخذ بعضُنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولَّوْا فقولوا اشهدوا بأنَّا مُسلمون)[2].

وبهذه الآية كان يختم النبي ﷺ رسائله إلى ملوك النصارى وأمرائهم.

---

(١) التوبة: ٣١.

(٢) آل عمران: ٦٤.